المحاضرة 2

الرواية والتاريخ :

" كتاب الأمير؛ مسالك أبواب الحديد" لواسيني الأعرج أنموذجا

كتاب الأمير ـ مسالك أبواب الحديد هي رواية جزائرية معاصرة للروائي الجزائري المعروف واسيني الأعرج صدرت في أوّل طبعة لها بالجزائر عن منشورات الفضاء الحرّ بالجزائر العاصمة سنة 2004 في حوالي 554 صفحة (1)، ثمّ جاءت الطبعة الثانية لهذه الرواية عن دار الآداب ببيروت سنة 2005 في 632 صفحة، لتتوالى بعد ذلك طبعات الرواية وتترجم إلى الفرنسية وتحصل على جوائز عربية وعالمية.

ويمكن اعتبار **كتاب الأمير؛ مسالك أبواب الحديد** أوّل رواية جزائرية تُكتب عن شخصية الأمير عبد القادر على خلاف الكتب التاريخية التي أسهبت في الكتابة عنه وعن مقاومته للاستعمار الفرنسي وحروبه معه.

تستمدّ هذه الرواية مادتها الأساسية من كتب التاريخ الخاص بالجزائر في القرن التاسع عشر وتركّز في سردها على شخصيتين تاريخيتين أساسيتين هما : شخصية الأمير عبد القادر الجزائري أثناء مقاومته للآلة الاستعمارية الفرنسية الغازية في الفترة الممتدة بين 1830 و1847، والفترة الثانية من حياة الأمير وهو في سجنه بفرنسا ما بين 1847 و 1852. بينما الشخصية الثانية التي تركّز عليها الرواية هي شخصية دينية مسيحية فرنسية، إنّها الأسقف أنطوان – أدولف ديبوش Antoine-Adolphe Dupuch، الأسقف الأول في الجزائر، ما بين 1838 و1846.

قسّم الروائي واسيني الأعرج روايته إلى ثلاثة أقسام أو أبواب هي : باب المحن الأولى، باب أقواس الحكمة، باب المسالك والمهالك. توزّع الباب الأوّل بين ستّة أجزاء أو وقفات (الأميرالية + 5 وقفات) على حسب تعبير المؤلف، وجاء الباب الثاني في خمسة أجزاء (الأميرالية 2 + 5 وقفات)، بينما قُسِّم الباب الثالث والأخير إلى خمسة

أجزاء (الأميرالية 3 + 3 وقفات + الأميرالية 4) فيصبح عدد الوقفات مع أجزاء الأميرالية **هو ستّة عشر جزءا.** وحرص الكاتب – كما هو طبعه في الكتابة الروائية – على إفراد كلّ جزء أو وقفة بعنوان خاصّ به. هذه الوقفات أو الأجزاء الستة عشر تناولت الفترة الزمنية الممتدة ما بين سنوات 1832 إلى 1852 وهي سنوات مقاومة شخصية الأمير للاستعمار ثمّ استسلامها ووقوعها في الأسر والنفي إلى فرنسا إلى غاية إطلاق سراحها في عهد إمبراطور فرنسا لويس نابوليون الثالث.

ويمكن لنا تقسيم الرواية إلى محطات سردية متوازية - إن صحّ التعبير- هي :

لعلّ أهمّ محطّتين سرديتين متوازيتين هما : المحطّة السردية الأولى تهتمّ بكلّ ما يتعلّق بحياة الأمير عبد القادر الجزائري فتسرد لنا فترة مقاومته للاستعمار الفرنسي منذ سنة 1832 إلى غاية استسلامه سنة 1847 ثمّ سجنه ونفيه إلى فرنسا ما بين سنوات 1847 و 1853. بينما المحطة الثانية تهتمّ بسرد حياة الأسقف الفرنسي موسنيور ديبوش رئيس أساقفة الكنيسة الفرنسية في الجزائر.

وجاءت المحطّة السردية الثالثة لتحاول تقديم تجربة الأمير في المنفى أثناء سجنه بفرنسا. فقد انتقل في منفاه من ميناء مدينة طولون العسكري إلى قصر أمبواز ببوردو. كما تبيّن لنا هذه المحطة مطالبة الأمير فرنسا بتنفيذ ما وعدته أثناء الاستسلام بالذهاب إلى مكة أو تركيا ، وموقفه كذلك من عدم تنفيذ فرنسا لوعدها .

والمحطة السردية السادسة تركّز على علاقة الأمير المعقدة ببعض القبائل الجزائرية؛ بأوضاعها الاجتماعية والحربية الموروثة، وعلاقته التي تعقدت في مراحلها الأخيرة مع سلطان المغرب، مولاي عبد الرحمان وأمرائه وولاته.

وتتوازى المحطة السردية السابعة بين بناء الرواية انطلاقاً من رغبة ديبوش في كتابة رسالة إلى لويس نابليون، يدافع فيها عن الأمير، واحترام فرنسا لكلمتها وشرفها بإطلاق سراح الأمير؛ وبين سرد الأحداث أو انفتاح الرسالة على الأحداث التي يريد ديبوش التدقيق فيها، وإقناع الفرنسيين بما فعل الأمير، وبراءته مما حصل، أحياناً، أثناء حروبه مع فرنسا. وعندما يكون ديبوش قد استوفى كل دقائق الأحداث الدالة على

لسان الأمير، وهي التي يريد عرضها على لسان لويس نابليون، تكون الرواية قد وصلت إلى نهايتها أيضاً. هناك علاقة بين الرسالة وتصور بناء الرواية. وكأنّ الرواية "رسالة"، أو "مرافعة"، للدفاع عن الأمير أمام لويس نابليون. وواضح هنا أن الرواية قد اعتمدت على هذه "الوثيقة-الرسالة" التي صدرت في كتيب بعنوان: **عبد القادر في قصر أمبواز، مهدى إلى السيد لويس نابليون بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية. بقلم مونسينيور أنطوان-أدولف ديبوش أسقف الجزائر السابق.** الطبع والليتوغرافيا ل.: ح.فاي. شارع سان كاترين، 139. أفريل 1849.(الرواية . ص. 20). ولهذه "الوثيقة-الرسالة" عدة طبعات بالفرنسية في شكل كتيب صغير، مؤلف من125 صفحة (5).

حاول الروائي أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر الحديث من خلال علاقة الأمير بموسنيور ديبوش أسقف فرنسا بالجزائر. أراد أن يكتب ما لم يقله التاريخ الرسمي عن الأمير. لقد بذل واسيني الأعرج – باعترافه هو - جهدا كبيرا في البحث وجمع الوثائق التاريخية عن الأمير ومراسلاته كي يدخلها ضمن عمله الروائي محاولا بذلك التقريب بين التاريخ والرواية، وهادفا إلى دفع هذه الوثائق للبوح بما لم تخبر به في التاريخ الرسمي وتكشف عما هو مستور منه إبّان فترة الاستعمار الفرنسي ومقاومة الأمير له.

ولكن يحقّ لنا أن نطرح سؤالا أو تساؤلا على درجة كبيرة من الأهمية :

- هل استطاع واسيني الأعرج أن يبعث لنا شخصية الأمير كما كانت في بيئتها الجزائرية ما بين سنوات 1832 و1852؟ هل استطاع أن يجعلها تتصرّف بحسب طبيعتها المسلمة والمقاومة والصوفية كذلك ؟؟؟.

يصرّح الروائي واسيني بأنّ التاريخ لم يكن هاجسه ولا تَقَصّي الأحداث بغرض اختبارها، بل حاول في روايته هذه قول ما لم يقله التاريخ بإعادة كتابة التاريخ العامّ للجزائر لا التاريخ الشّخصي للبطل عبد القادر فقط. كما حاول فنّيا تقريب المسافة بين السّرد الرّوائي والسّرد التاريخي. لقد كان هدفه دفع الأحداث والوثائق التاريخية لتكشف أكثر عن المناطق المجهولة في الوقائع التاريخية إبان فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر. فكان التجاءه إلى ذلك بهدف الكشف عن الحوار الحضاري بين الإسلام والمسيحية، بين شخصية الأمير و"مونسينيور دي بوش".

لكن هل هذا ما كان يريده حقا الروائي ؟؟؟

حينما نحلّل بعض مقاطع الرواية سيظهر لنا شيئا آخر على جانب كبير من الخطورة :

لعلّ أوّل نصّ من الرواية يثير اهتمامنا ويطرح أكثر من سؤال عن أهداف الروائي المضمرة من تقديمه لشخصية الأمير في هذا الموقف هو ما يتجلى لنا في الصفحة الواحدة والخمسين من الرواية بعدما يلتقي مونسنيور ديبوش بالأمير في سجنه بفرنسا وبعد محاوراته معه دامت خمسة أيام فيعترف موسنيور بحبّه للأمير ومكانته في قلبه وفي دينه المسيحي. فيردّ عليه الأمير قائلا :

" – روحك أنت غالية عليّ، ومستعدّ أن أمنح دمي لإنقاذها. امنحني من وقتك قليلا لأتعرّف على دينك وإذا اقتنعت به ، سرت نحوه " **(الرواية الطبعة 2 – دار الآداب – بيروت – 2008 – ص51)**

ولا يكتفي الروائي بالتخييل وإنّما يسارع إلى إضافة نصّ آخر في الصفحة ذاتها، إذ يطلب الأمير " من مونسنيور أن يساعده للحصول على كتب متخصّصة في الدين وإلى كاهن معرَّب يشرح له تفاصيل المسيحية في صفائها الأوّل "

ماذا يمكننا أن نفهم من هذا ؟؟؟؟؟

قد نفهم بأنّ الروائي كتب هذا العمل عن شخصية جزائرية معروفة عالميا بتسامحها مع الديانات الأخرى ليقدم للقارئ مثالا عن الحوار الحضاري والتسامح الديني، وهذا ما فعله الأمير لاحقا بدمشق في فتنة 1860 التي عصفت بسوريا ولبنان بين المسلمين والمسيحيين حيث حمى هو ورجاله الآلاف من المسيحيين الفارين من بطش المسلمين وأخفاهم في دياره وديار مساعديه وأهله.

ولكن ما لا نفهمه هل الأمير الذي حارب الاستعمار الفرنسي وهو المجاهد والمتصوف وكتب ابن عربي لا تفارقه ، يحاول اتّباع دين آخر ؟ هل هو لم يعد يعتقد اعتقاد اليقين بأنّه يمكن لدين آخر غير دين الإسلام أن يُتّبع ؟؟؟

إلى من كنت تكتب هذه الرواية يا أيّها الروائي؟

إذا كنت تكتبها للقارئ الجزائري والعربي، فلا يمكنك مواجهته بهكذا أفعال وأقوال عن أحد رموز المقاومة الجزائرية ومتصوفيها لأنّ القارئ الجزائري يعرف من هي شخصية الأمير وما هي مكانته الإسلامية الصوفية، ولا يمكن أن يقبل بما تقول.

فلا شكّ أنّ الكاتب وهو يكتب روايته هذه بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، ليطمئن القارئ الغربي على وجود إسلام ليس إرهابيا وإنّما إسلام متسامح ومعتدل ويقبل بالآخر. فالرواية موجّهة أساسا للمتلقي الغربي.

وكي يقبل هذا القارئ الغربي روايته فلابد أن يقدم أحد الشخصيات التاريخية الإسلامية وهي في موقف المستسلم ليس فقط عسكريا وإنّما دينيا كذلك؛ أي وكأنّنا نرى الأمير من خلال محاورته هذه وكأنّه فقد يقينه بالدين الإسلامي ويرد أن يقرأ عن دين مسيحي لعلّه يقتنع به فيتّبعه.

وما يدلّل على ما ذهبنا إليه هو نص آخر من الرواية يأتي به الروائي سريعا في الصفحة 52 : " عندما همّ مونسينيور بالمغادرة اقترب منه الأمير :

- قل لكلّ من تلقاه من القدّيسين النصرانيين، أن يدعوا لي لكي يغمرني الله بنوره ويفكّ كربتي وأسري.
- سأفعل. "

ما هذا الكلام الخطير على لسان الأمير؟؟؟

الأمير يطلب من رئيس أساقفة الكنيسة المسيحية بالجزائر أن يطلب من القديسين النصرانيين أن يدعوا له كي يغمره الله بنوره ويفك كربته وأسره.

وكأنّنا أمام رجل مسيحي ضائع وتائه يحاول الاعتراف بذنبه ويطلب مساعدة القديسين له.

هل نسى الروائي واسيني الأعرج أنّ الأمير من المتصوفة المسلمين ومن علماء المسلمين حتى أنه درّس بالمسجد الأموي بدمشق لسنوات. كيف يلتجئ لغير المسلم في السؤال كي يقبله الله ؟؟؟؟؟

هل نسي واسيني الأعرج أو تناسى كتاب الأمير الذي ألّفه في سجنه ردّا على افتراءات بعض المسيحيين عن الإسلام وكيف جاء هذا الكتاب كي يدافع عن الإسلام ضدّ هؤلاء.

لقد اكتشف الأمير أثناء وجوده بفرنسا نوعا آخر من الأوربيين يختلفون عن الذين تعامل معهم أثناء مقاومته للاستعمار، هذا النوع يمتاز بالخداع والمكر وتلفيق الاتّهامات إلى الإسلام فيكتشفه الأمير من خلال محاوراته مع بعضٍ منهم. ولهذا يقوم بتأليف كتاب المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد. وهو في الأصل رسالة للرد على أحد القساوسة الذين اتهموا الدين الإسلامي زورا بأنه يبيح الغدر والخداع، ألفه في سجن أمبواز.

هل من يقوم بكتابة هذا الكتاب للدفاع عن الإسلام هو شخص ضائع ومتشكك في دينه وكماله إلى درجة ان يبحث عن دين آخر ويطلب من أتباع الدين الآخر ان يدعوا له كي يرضى الله عنه ويفكّ أسره ؟؟؟؟

هذه النصوص الخطيرة وغيرها من النصوص - التي تسمّم تاريخ شخصية إسلامية عظيمة -ضمّنها الروائي داخل الرواية بطريقة ذكية تجعل من يقرأها يعتقد بأنّ الأمير كان قاب قوسين أو أدنى من اعتناق المسيحية.

فحينما نقرأ هذه الرواية سنجد أنفسنا نتساءل :

هل يحقّ للروائي تجاهل كلّ ما يشكّل خصوصية شخصية الأمير عبد القادر؟ هل يحقّ له انتزاعها من سياقها التاريخي والثقافي كي يرسمها وفق صورة تسعى إلى إرضاء ميوله ومتطلبات القارئ الغربي الذي يكتب إليه ؟ هل يحقّ له رسم الشخصية التاريخية في صورة تبدو للمتلقي غريبة عن بيئتها الخاصة، أي عن كلّ ما يمنحها تميّزا وهويّة ؟؟؟

وتطرح الدكتورة ماجدة حمود في كتابها " إشكالية الأنا والآخر ؛ نماذج روائية عربية " مجموعة من التساؤلات الهامة أثناء وبعد تحليلها لرواية واسيني الأعرج عن طبيعة علاقة الروائي بالتاريخ ومدى التزامه به وإلى أيّ حدّ يمكنه التخييل والتغيير في الأحداث التاريخية وسمات الشخصيات التاريخية بقولها :

" هل إلغاء الصراع الفكري بين الأنا والآخر المستعمِر في الرواية التاريخية يمنحها مصداقية ؟ لماذا اختفى الحوار مع الآخر المخالف للأمير؟ لماذا سلّط الروائي الضوء على أصدقاء عبد القادر الجزائري من الفرنسيين ؟ هل تكفي منتخبات من الوثيقة التاريخية وفق رؤية مسبّقة وقليل من التخييل لتجسيد شخصية كانت مؤثرة في زمانها ومازالت؟ أليس التحدي الأكبر أمام الروائي هو: كيف يتمكّن من تقديم روح الشخصية التاريخية ونبضها وأحلامها وأفكارها الخاصة، والتي تستقلّ بها عنه؟

ولكن هل يستطيع أن يجسّد هذه مثل هذه الشخصية المستقلّة من دون أن ينطقها بلغة خاصة بها، أي بلغة تتناسب وسياقها التاريخي والثقافي؟ ... ماذا يعني تستّر الرواية التاريخية عن تصرّفات الآخر الوحشية؟ ... لابدّ أن يتساءل المتلقي مستغربا : لماذا سيطر صوت واحد للآخر (مسالم ومتسامح وخيّر ...) وأُغفل الصوت المعتدي الذي أصرّ على البقاء في الجزائر مائة وثلاثين سنة، لم يخرج منها إلاّ بالثورة والدم؟."

هذه التساؤلات المهمة التي طرحتها الباحثة في دراستها وتحليلها لرواية كتاب الأمير لها ما يبرّرها وأذهب إلى ما ذهبت إليه لأنّ الرواية محمّلة بنصوص وكلمات ومفردات تجعلنا نعتقد اعتقاد اليقين بأنّ الروائي واسيني الأعرج أراد استمالة المتلقي الغربي على حساب تشويه شخصية تاريخية مثل الأمير عبد القادر.

وجدير بالذكر يشير أحد الباحثين الجزائريين إلى هذا التشويه المقصود من طرف الروائي لشخصية الأمير حينما تتجاوز الرواية في بعض نصوصها إلى اختلاق صفات لم نجدها عند أهم الذين تحدثوا عن العلاقة بين السلطان المغربي والأمير. وهي وصف الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمن بـ "العَكُّون" (ص385) وهي صفة تفيد الإنسان الأبله الذي لا يفهم في الأمور شيئاً. علماً بأن المصادر التاريخية المعروفة عن الأمير لم تشر إلى ذلك، وقد تكون من اختلاق الكاتب. كما أنّ أخلاق الأمير عبد القادر، وسلوكه وحسن منطقه وثقافته وتعففه، لا تسمح له بمثل ذلك التوصيف. ولكن معظم

الذين يعتبرون عمدة في تاريخ الأمير، أو في تاريخ السلطان مولاي عبد الرحمان، أو محمد بن عبد الرحمن نفسه، لا يذكرون ذلك.

ولنا وقفة مرة أخرى مع رواية الأمير.

مصادر ومراجع المحاضرة :

- واسيني الأعرج : كتاب الأمير؛ مسالك أبواب الحديد – دار الآداب – بيروت – الطبعة 2 – 2008.

- شريف بموسى عبد القادر : الفهرس البيبليوغرافي للرواية الجزائرية (1947 - 2015) – دار إي كتب للنشر – لندن / بريطانيا – أكتوبر 2017 – ص 170.

- ماجدة حمود : إشكالية الأنا والآخر : نماذج روائية عربية – سلسلة عالم المعرفة - الكويت – العدد 398 – مارس 2013.

- محمد القاضي، الرواية والتاريخ : طريقتان في كتابة التاريخ روائيا، مجلة علامات في النقد (جدة) الجزء 28 المجلّد 7 يونيه 1998.